

هجرة من كتاب :

## حذار يا سيدي (\*)

للأستاذ سميد الأفغاني

-----

الآن ، وقد بلغت بك نهاية الحديث عن السيدة عائشة ومناصرتها السياسية ، وآثارها التربوية والبيدية في حياة المسلمين أودعك موصياً أن نجمل بالك أبدأ - كلما قرأت التاريخ - إلى عبره وتجاربه ، فتأخذ من كل شيء أحسنه ، وتربياً بنفسك وبأمتك أن تناصر في تجربة ثبت ضررها وفسادها ، وخاصة إذا كان الثمن الذي قدمته فيها دماء عشرات الألوف . وأنا أريد أن أختم كلامي بالنص على عبرتين اثنتين من هذه العبر الكثيرة التي تعرض لقارئ هذا الكتاب ، تذكراً مما نحن فيه اليوم من تحبط ، وتيران لنا طريقاً طال تمسفتنا في التاهات دون أن نهتدي إليه .

أما الأولى : فهي أن المرأة لم تخلق قط لتدس أنفها في المنازعات السامية . إن لها أن تنصح وتبصر القريبين منها بمواقب الأمور ، وليس لها أن تشارك في القتال والاضطرابات والنقن . إن بيدها مفاتيح خطرة في التأثير في نفوس الجماهير وفي استئلال حبيهم ونحوهم ومشاعرهم ، وهذا السلاح غير جيد في المواقف ولا يصح استعماله بحال . وقد أبنت لك أنه لولا موقف السيدة عائشة في أمر عثمان ثم المطالبة بدمه من بعد لتغير مجرى الحوادث في تاريخنا التاريخ كاه ، ولسارت سيراً مأموناً مطرد الرق مباركاً ، فيه الخير كل الخير للأقطار الإسلامية ...

وكان الله الذي جعل النساء لتنشئة الرجال وتربية الأجيال وإدارة البيوت ، أراد أن يعظ المسلمين عظة عملية لا تنسى ، كلفهم كل تلك الدماء المهرقة ، ونجمهم بالألوف من الصحابة الأجلاء المهاجرين والأنصار ومن الفحول الذوايد من أبطال الفتح وأماظم الفقهاء وأساطين القراء ورؤوس الناس ... ليعلموا :

(\*) الفصل الأخير من كتاب (عائشة والسياسة) تصدره لجنة التأليف والترجمة والنشر قريباً

أن لو كان أمر من أمور الرجال الخاصة بهم يقوم بإمرأة ، لقام بعائشة أم المؤمنين ، تلك السيدة الحسنة التي أوتيت من المواهب والذكاء والعلم والبلاغة والصلاح ... ما لم يؤته رجال كثيرون مجتممين ، والتي جمع الله فيها من المآثر النظام ما تفرق في المدد العديد من الفحول .

لقد خلدت حرب الجبل مناراً في تاريخ المسلمين : كلما نزع بهم نزع من تقليد أعمى لتبرم من الأم ؛ أو من رجعية ذميمة ، فهبطوا بالمرأة من الصيانة إلى الابتذال ، أو هو أن يخرجوا بها عما خلق لها وخلق له ... قالوا لأنفسهم : أخفقت هذه التجربة في صدر تاريخنا ؛ فما بنا من حاجة إلى أن نعيدها عبثاً ، أو أن نهرق في سبيلها ثانية دماء جديدة ونحرب بيوتنا عامرة ... ومن لنا مع هذا بمثل عائشة .

وليدكروا أبدأ أقوال عائشة بعد ما عاينت هول ما جرت به مناصرتها السياسية على الأمة من ويلات ، إنها قضت عمرها حسرة وندامة ، حتى أذابت الحسرة قلبها وكبدتها وحتى قتلتها الحزن قتلاً . وفي هذه الكلمات البليغات منها عبرة لنا أي عبرة :

« ليتني لم أخلق » ، « ليتني كنت شجرة » ، « ليتني مت قبل يوم الجبل بمشرين سنة » وقد كانت آخر كلماتها التي ودعت بها الحياة قولها : « إن يوم الجبل معترض في حلقى ، ليتني لم أخلق »

\*\*\*

إن هناك مجالاً واسعاً لنشاط المرأة حين نجد وقتاً فاضلاً عن شؤون التربية وإدارة المنزل ، تستطيع به أن تملأ الأجواء خيراً ورحمة وإحساناً . هذه وجوه الخير مفتحة الأبواب في وسع المرأة أن تلجها فتمارس أموراً عظيماً وتبذل جهوداً مشكوراً يدود على أمتها بما لا يقل عما يأتيه الرجال المحسنون ثمرة وغناء وطيب أثر .

أمامها من ميادين الخير : التمريض وإسفاف الفقيرات من بنات جنسها بالملاج والدواء والطعام والكساء . وفي مجتمعنا من المحتاجات ما يشغل عشرات الجمعيات الخيرية من النساء ولا يفي بم حاجتهن عشرات المستشفيات .

وأمامها أيضاً كفاح الجهل في بنات جنسها ، فلتنشئ لمن الماهد ذوات المناهج الصالحة لتنشئة الأمهات على الاستمرار لها برامح الذكور ( بيمض التعديل ) فقد ثبت مع الزمن أنا حتى

الآن لم نعلم التعليم الصالح للبنات (١)

وهناك أمام المرأة العناية بتربية اليتيمات وإنشاء (اليانم) وتمهيد  
أمهاتهن بالرعاية والتوجيه ثم إشاعة الثقافة الصحية بين  
النساء عامة ...

ويجب أن ينشأ فبين التخصصات في جميع الفروع التي يحتاج  
إليها النساء والأطفال، وأن يكون منهن العدد الوافق بالحاجة بحيث  
يسددن عوز النساء في علاج أمراض العين والأسنان والأمراض  
الداخلية والجلدية وفي حاجات التوليد .

فإن كان ولا بد من زيادة فإلى المساهمة في كفاح ما يتفشى  
في المجتمع من امتهان المرأة وإشغالها عن طريق البناء والقمار  
والخمر وغيرها من المفسد التي ضاقت بشرورها المفكرون في  
الغرب والشرق ...

لدى المرأة إذن كثير من أعمال الإحسان تنتظر من يقوم بها ،  
وفي ذلك الخدمة المخلصة للامة وإعمار البيوت وإفاضة الخير  
والسعادة في المجتمع ...

ونحمد الله على أن في فضليات نساءنا من تحاول سد هذه  
الثلمة ، إلا أن نسبتهم قليلة جداً بالقياس إلى اللائي تنكبن الجادة  
متخبطات على غير بصيرة ، فهجرن بيوتهن واكالات أمورهن  
إلى الخوادم ، وطفقن يمارسن ما لا يعود عليهن وعلى أسرهن  
وأتهن إلا بالضرر الخالص والإفساد الكبير : من إقامة حفلات  
ساهرة مخجلة ، وغشيان مجتمعات وأندية ، واقتحام أسفار ،  
وعقد مؤتمرات لا ييلفن فيها أمراً ناقماً ، بل كثيراً ما يرجمن  
وقد سبقتهن أشام الحوادث وأسوأ الأخبار ... مما يدع السامع  
ينشد قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكنت إذا حلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عاراً

(١) ينبغي أن تكون أكثر مواد هذا التعليم موحدة واسعة تجريبية  
في كل ما يحتاج إليه الأم في الصحة والدين وشؤون المنزل وتربية البنين  
وحب الأسرة ... لا خليطاً غير منسجم من نظريات الرياضيات ومعادلات  
الكسوف وقوانين الفلكية . ولتجعل التاريخ الذي يدرسه مملوءاً بسير الدين  
ضرباً للتسلل المليء بالبشر في سمو النفس وابتناء الخير وخدمة الناس ، وفي  
الفضائل آلمية من أشاعوا الرحمة والصلاح والعدل والخير ، وكانوا للانسانية  
حماها الأبطال المحمدين من رجالنا ونساءنا على السواء . ولتجنب شعنه لمن  
بأخبار الغوائل والاضطرابات والفتن والحروب ومثل التصادم والظلمانيان .

يقبلن بذلك نساء ضج عقلاء أمهن من أحوالهن (١) وسقط  
مقامهن فيها من كثرة هذا التبذل والبعث ، وعدن على بنات  
جنهن من البريئات بأبلغ الضرر لما لوتن من سممة المرأة عامة .  
ليتنا إذا جئنا بالتقليد اخترنا من نقله ، ففي كل أمة من فضليات  
النساء النافعات من يحسن الاقتداء به ، ولكننا نتفق أخط  
البتذلات ثم نسبقهن في الابتذال أشواطاً يخجلن هن أنفسهن  
من السمي إليها .

وأبعد من هذا ، أننا إذا أمنا في البيت وما يحتاج إليه تديره  
على خير نسق من علم واسع غزير في الصحة والأخلاق والتربية  
والمشرف ، وسياسة الزوج والأطفال ، وسياسة المورد والمصرف  
ورعاية ذلك كله . . وجدنا أن علم ذلك وإتقانه وحسن إضائه  
لا يكاد يبقى للمرأة القديرة ذات المواهب الجمة من فراغ أو جهد  
فكيف المتوسطات بله الضميقات . إن ما يلزم لتصبح الأنثى  
اسرأة (مشقة) ليتضاهل أمامه - في اعتقادي - كل ثقافة ثانية  
مهما كانت رفيعة مفيدة .

وعلى المرأة الجادة بمد ذلك واجبات عديدة تستطيع أن

(١) ووددت لو تفرغ طائفة من علماء النفس إلى دراسة شبة عميقة  
لنفسه اللائي يطالبن بالمقوق السياسية في أوروبا وأمريكا واللاتي استغرق  
( نشاطهن ) الاجتماعي كل وقتهن ، فتل في أعماق نفوسهن هوى سحيقة  
ومهارات أتمية وعلا وشذوذاً ... وشعوراً صارخاً بنفس مائل لأعينهن كيها  
توجهن ، فأثرن تناسيه والحرب منه بذلك (النشاط الاجتماعي) . والطريف أن  
هؤلاء لم يكثر عددهن إلا في هذه السنين الثلاثين الأواخر ، حين فقدت  
أوروبا الشعور بذف الأسرة ونبيها وروحها ، وختل البيوت من جوها  
الجبل الجذاب ، جوارث الآف والاجتماع والتحاب والتماطف ، وأصبحت مأذنة  
البيت فلما يجمع عليها اثنان جد أن تشرذ أفراد الأسرة وتبعثوا في المطاعم  
والسهرات . فلو كان بناء الأسرة متأسكاً متناً حياً كهده الأول ، ما كان  
الطالبات بحق الانتخاب والنيابة والوزارة والتشيل السياسي وما إلى ذلك .  
وإذا أساغ التصور السليم مثل هذا الشذوذ في روسيا السوفيتية ، حيث  
يراد إقامة مجتمع لابناء للأسرة فيه ، فإنه لا يتخيل بحال امرأة عضواً عاملاً  
في أسرة ثم تكون مندفة في تيارات السياسة وما إليها في وقت ما .

ووددت أيضاً لو شرع الفتيون من رجال الإحصاء بدراسة تعرفنا  
نسبة ويات الأسر اللائي أتم الله عليهن بالزواج والولد بين الطالبات بحق  
الانتخاب مثلا ، ثم أحصوا نسبة الجيلات منهن ، ثم ... ثم ... إلى لأختي  
أن تكون الكثرة الكاثرة منهن ممن حرمهن الله الجمال والزواج والولد ،  
ففسن على المجتمع نظامه ، وعلى الأخلاق قوانينها ، وعلى السعادة وجودها  
على الأرض ، وآلين على أنفسهن إلا يضمن الحرب حتى يم المعدل وجه  
الأرض ، وما المعدل عندهن إلا هدم الأسر وأظلمة الزواج ، وسلطان  
الصور ، ومحو السعادة جملة ...

المصيبة بها، وتستفحل آثار شرورها في مستقبل الأمة وسلامة المجتمع فلها إذن آثار بعيدة في السياسة، وهي تسدى لوطنها أعظم الفضل أو تبلغ منه أعظم النكايه، لا بنفسها مباشرة فقط، ولكن بنفسها وبما تنشئ، عليه أبنائها سياسى الند من فضائل أو رذائل، وبما تنال ضمير الناشئ، ووازعه الدين من عناية أو إهمال

\*\*\*

ذلك وقد أعان على تردى المرأة في الخروج على أئوتها وفطرتها فريق من أشباه الكتاب حملوا أقلاماً ولم يحملوا إخلاصاً ولا أمانة ولا نصحاً. دفعهم الرياء الغشوش على أن يفرقوا في مجاملة المرأة المشتعلة الطائشة ابتناء الميث بها وبكرامتها، فحملوها فوق ما تستطيع من السخط على الطبيعة التي فيها لكل كائن عمل خاص. وكان حق المرأة على هؤلاء أن يأخذوا بيدها إلى ما يسدها من علم وخلق، وإلى ما يميزها في المجتمع سيدة بيت وصرية أجيال. وكان من حقها أيضاً على من يزعم نصرتها أن يمكسها عن أن يهوى بها الطيش في مكان صحيح فتفقد ما لها من حرمة هي ملاك أمرها كله في المجتمع. ليتنا في غمراتنا اليوم نسترشد بتجارب الماضى ونسير غير متخبطين: نبصر مواطئ أقدامنا ونتق الزلقى، ونجند كلاً في ميدانه الذى يصلح له. لقد تداعت علينا الأمم، وطمع فينا حتى (المهانية) من شذاذ الآفاق، وغزينا في أخلاقنا وبلادنا وأموالنا... وليس في جهودنا فضل تنقذ في رد المابئين عن عيهم؛ فليتنق الله حملة الأقلام وليصونوا الشارادات عن القطيع، وليرجعوا بهن عن طريق وضعن أقدامهن في أوله وما آخره إلا مستقبل أسود حالك لأننى أولاً، ثم خراب البيوت وهدم الأسر وارتكاس المجتمع وموت كل كرامة امتاز بها الإنسان من دون الحيوانات الدنيا.

وما الانهيار السريع الذى قضى على بعض دول الغرب العظمى في مثل لمح البصر بسبب فساد المرأة، ببيد فينسى. ولنا فيه درس وموعظة وبلاغ<sup>(١)</sup>

سعيد الأرفغاني

(١) أما العبارة الثانية فقد كنا لمرناها في العدد (٧٠٣) من الرسالة

بنيران (من سكبث المزينة في تاريخنا).

تشارك في شرف الخدمة فيها، على شرط واحد: هو أن تم كل ما عليها من واجب نحو بيتها وأسرته أولاً، وإثماً يكون التطوع والصدقة والإحسان فيما فضل عنك من مال أو وقت أو جهد.

\*\*\*

هذا، ولست أقول إن المرأة لا تنفع منها في باب السياسة، أستغفر الله، إن منها النفع كل النفع من طريق واحد فقط: هو أن تتحل بكل فضيلة رسمها لها دينها ثم تنشئ عليها أولادها، فإنا في امرأة فرطت بفضائل دينها من خير قط. والناس على حق حين يهملون كل أدب واحترام إذا رأوا امرأة جامحة على الآداب النسوية التي شرعها الله. والدين للمرأة هو كل شيء في نظر زوجها وولدها وأسرته والناس أجمعين، فإذا جاهرت بشيء من الخروج عليه فقدت كل احترام في النفوس، وانتقلت نظرة الناس لها دفمة واحدة من التقديس إلى الزرابة.

إن من لم تكن أئينة على دينها لن ينتظر منها إلا الشر والحياة لأسرتها ووطنها، مثلها في ذلك مثل الرجال: روق دينهم فلما مارسوا الشؤون العامة مالمين الدنيا سخياً بدعوى إخلاصهم ووطنيتهم، كان بلاء الأوطان منهم وهدم إذ كانوا لا يخافون الله ولا يرعون لدين عهداً ولا لضمير حرمة، فانطلقوا يشحنون الأرض خفياً وكسفاً ونهباً وسلباً واحتكاراً وفلاذ وإهداراً للكرامات والقيم وتضييماً للأمانات والحقوق. وبذلك ضربوا أسوأ الأمثال وأظهروا وطنهم بشر المظاهر... ومن مات وازعه الدين ونسى يوم الحساب قلن يردّه عن طغيانه رادع من الناس ولا رقيب...

وأنا على يقين من أن أهماتهم مسؤولات — إلى حد بعيد — عن هذا الخزي الذى ارتطموا فيه، إذ أهملن فيهم تربية الوازع وإحياء الضمير وإشحام خوف الله والحساب. لقد حرمتهم النشأة الدينية المناضلة فلم يعرفوا لنتها، ولم يتمهدن ذمتهم وأخلاقهم ففقدوا في أنفسهم الكرامة الإنسانية، فلما تغلبوا وسيطروا كانوا فوق الوحوش ضراوة وشراسة وقسوة قلب، فم البلاء البلاد والمباد...

إلى هذا الحد تبلغ جريمة المرأة النافثة على غير دين، وتنظم